ISSN 2170-0796

الحركة الفكرية في عهد ملوك الطوائف

الأستاذ بن لحسن عبد الرحمان جامعة بشار

الملخص:
لقد نشطت الحركة الفكرية في عهد ملوك الطوائف لأسباب متعددة:تفرقت في كل ناحية مجموعات الكتب التي كانت مختزنة في مكتبات قرطبة، والحرية التي أباحها ملوك الطوائف في شتى نواحي الحياة الاجتماعية..."وكانت إشبيلية من المراكز التي وفد عليها العلماء و الأدباء والشعراء لعناية ملوكها بهم، وصارت مجمعا لصوب العقول وذوب العلوم، وميدان فرسان المنثور والمنظوم، لاسيما من أول المائة الخامسة من الهجرة و على رأسهم الأعلم الشمنتري...

– مقدمة:
كثر المشتغلون باللغة من الأندلسيين والمشرقيين الذين هاجروا إلى الأندلس فتركوا طائفة نفيسة من المعاجم والشروح اللغوية، وكتب الصرف والنحو، واشتهر منهم أبو علي القالي صاحب الأمالي في اللغة والنوادر، وأبو بكر الزبيدي وله مختصر العين، ولحن العامة، والواضح في اللغة، وطبقات النحويين، والأبنية في النحو، وابن سيده وله المحكم في اللغة، وهو معجم مشهور في أجزاء عدة، والمخصص وهو في سبعة عشر مجلداً، مرتب على معاني اللفظ كفقه اللغة والألفاظ الكتابية، ، وابن خروف وله شرح كتاب سيبويه، وكتاب الجمل للزجاجي، والشريشي وله شروح ثلاثة لمقامات الحريري، شرح كبير ووسط وصغير، ومنهم الأعلم الشنتمري وله شرح الجمل في النحو للزجاجي، وشرح ديوان المتنبي وشرح ديوان أبي تمام وديوان زهير، والشعراء الستة وهناك غيرهم كثيرون...و بعد هذه العجالة، كان لزاما علينا أن نتطرق إلى ما خلف هذا الشارح الفذ، وما زود به الساحة الأدبية والفكرية.

ثقافة الأعلم الشنتمري:(شيوخه، مؤلفاته، تلامذته)

فضروري أن نعرفه لأنه يبدو غريبا عند الكثير من الدارسين، والذين يميلون إلى الشرق غير مبالين بما ينتجه الغرب الإسلامي، أو لقلة اطلاعهم على الأدبيين المغربي والأندلسي، ومن بين هؤلاء المغموطين الأعلم الشنتمري.
فالأعلم الشنتمري نسبة إلى شنتمرية الغرب مدينة في الأندلس من مدن أكشونية، وهي أول الحصون التي تعد لبنبلونة، وهي أتقن حصون بنبلونة بنيانا و أعلاها سموكا، مبتناه على نهر أرغون على مسافة ثلاثة أميال، وشنتمرية على معظم البحر الأعظم سورها يصعد ماء البحر فيه إذا كان فيه المد، وهي مدينة متوسطة القدر حسنة الترتيب، بها مسجد جامع ومنبر وجماعة، وبها المراكب واردة وصادرة، وهي مدينة أولية وبها دار صناعة الأساطيل.(1)
وشنتمرية تسمى اليوم فارو Faro و هي مدينة في البرتغال، و هي عاصمة المقاطعة التي تسمى اليوم الغرب، و هي مرسى على المحيط الأطلسي في جنوب البرتغال، تبعد عن الحدود الإسبانية بـ 56 كيلو مترا، يحكمها بنو هارون وأخذها منهم المعتضد بن عباد، و الأعلم كنيته، سمي بذلك لأنه كان مشقوق الشفة العليا شقا كبيرا، ومن كان مشقوق الشفاة العليا يقال له أعلم،(2) وأما اسمه الذي يرد في المصادر و المراجع فهو " أبو الحجاج بن سليمان بن عيسى، ولد 410هـ...

 ISSN 2170-0796

وفي فترة حكم ابن جهور رحل الأعلم إلى قرطبة سنة 433هـ ليأخذ العلم عن شيوخها، وأقام بها مدة حيث أخذ عن أبي القاسم إبراهيم بن مُحَمَّد ابن زكريا الإفليلي، وأبي سهل الحراني، وأبي بكر مسلم بن أحمد الأديب.(3)

وإذا كان مُحَمَّد العبدلاوي قد وفق للحديث عن الأدباء و اللغويين و النحاة الذين نبغوا في مدينة شنتمرية حيث قال: "وقد نبغ في شنتمرية عدد من الأدباء و اللغويين والنحاة، فبالإضافة إلى ابن الحسن بن هارون و الأعلم نفسه هناك حفيده أبو الفضل جعفر بن مُحَمَّد بن الأعلم الذي كان قاضيا بها... ومن شعرائها المشهورين في النحو أبو مروان بن السراج أحد أئمة العربية المبرزين، وكان معاصرا للأعلم كما كان من جملة العلماء المبرزين في بلاد المعتمد بن عباد إلى جانب الأعلم نفسه.(4)

فإنه لا يبدو مطمئنا من حيث سكوت المصادر عن الهوة بين تاريخ ولادة الأعلم وتاريخ رحلته لقرطبة حيث يقول: "ولا يسعنا بعد هذا إلا أن نقول إن المصادر تسكت ولا تذكر شيئا من نشأة الأعلم من يوم ولادته إلى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة".(5)مبرزا من خلال ذلك عجز مدينة شنتمرية عن إشباع طموح الأعلم الشنتمري العلمي في قوله:"ومهما يكن من أمر فإن الأعلم قد رحل إلى قرطبة في عهد ابن جهور لإشباع نهمه المتعطش للعلم،وهو ما عجزت شنتمرية الغرب أن تمد به."(6)

وإذا كان ابن شكوال قد ذكر في ترجمته للأعلم الشنتمري شيوخه حيث قال: "أخذ عن أبي القاسم إبراهيم بن مُحَمَّد بن زكريا الإفليلي، وأبي سهل الحراني، وأبي بكر مسلم بن أحمد الأديب".(7)فإن مُحَمَّد العبدلاوي قد قال: "ولا بد من التعرف على هؤلاء الشيوخ و التعرف على مروياتهم من شيوخهم الذين سبقوهم، لأننا إذا سرنا على هذا النهج، فإننا سنضع أيدينا على الملامح الكبرى لثقافة الأعلم ومكوناتها". (8)

فأبو القاسم إبراهيم بن مُحَمَّد بن زكريا الإفليلي نسبة إلى الإفليل وهي قرية بالشام كان أصله منها، وهو من أهل قرطبة، كان من أئمة النحو واللغة وله معرفة تامة بالكلام عن معاني الشعر، وشرح "ديوان المتنبي" شرحا جيدا وهو مشهور، وروى عن أبي بكر مُحَمَّد بن الحسن الزبيدي كتاب "الأمالي" لأبي علي القالي، وكان متصدرا بالأندلس لإقراء الأدب، وولي الوزارة للمكتفي بالله بالأندلس، وكان حافظا للأشعار، ذاكرا للأخبار وأيام الناس، وكان عنده من أشعار أهل بلاده قطعة صالحة، وكان أشد الناس انتقادا للكلام، صادق اللهجة، حسن الغيب، صافي الضمير، عني بكتب جمة كـ"الغريب المصنف" و "الألفاظ" وغيرهما. ولد سنة 252هـ وتوفي سنة 441هـ بقرطبة.(9) وأبو سهل الحراني هو يونس بن أحمد بن عيسون الجذامي، من أهل قرطبة، كان بصيرا بلسان العرب، حافظا للغة، قيما بالأشعار الجاهلية، عارفا بالعروض، و أوزان الشعر وعلله، جيد الخط، حسن النقل، ضابطا لما يكتبه مخلصا لما ينقله، يقرأ الناس عليه، ويقتبسون منه، ويحسن القيام بما يحمله من أصول علم اللسان فهما ورواية... توفي سنة 442هـ وكان سنه تسعا وسبعين سنة رحمه الله" (10)

والأستاذ الثالث هو مسلم بن أحمد بن أفلح النحوي الأديب من أهل قرطبة، يكنى أبا بكر وروى عن أبي عمر ابن أبي الحباب النحوي، وأبي مُحَمَّد بن أسد و أبي القاسم عبد الرحمن ابن أبي زيد المصري... كان رجلا جيد الدين، حسن العقل، متصاونا لين العريكة، واسع الخلق مع نبله وبراعته وتقدمه في علم العربية واللغة، راوية شعر وكتب الأدب، كان لتلاميذه كالأب الشقيق والأخ الشقيق، مجتهدا في تبصيرهم متلطفا في ذلك سنيا ورعا، وافر الحظ من علم الاعتقادات سالكا فيها طريق السنة، ولد سنة 376هـ وتوفي سنة 433هـ.(11)

ISSN 2170-0796

هؤلاء الشيوخ هم الذين ساهموا في تكوين ثقافة أبي الحجاج الأعلم الشنتمري في قرطبة، يقول مُحَمَّد العبدلاوي: "هذا ولكي نزداد معرفة دقيقة بثقافة الأعلم علينا أن نتتبع مروياته عن هؤلاء الشيوخ الذين روى عنهم:

1- كتاب الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام.
2- كتاب الأمثال لأبي عبيد أيضا.
3- كتاب الألفاظ لابن السكيت.
4- كتاب إصلاح المنطق لابن السكيت.
5- كتاب أدب الكاتب لابن قتيبة.
6- كتاب اختيار فصيح الكلام لثعلب.
7- كتاب أبنية كتاب سيبويه لأبي بكر الزبيدي.
8- كتاب لحن العامة ومختصر لحن العامة لأبي بكر الزبيدي.
9- كتاب سيبويه.
10- الكامل للمبرد.
11- كتاب النوادر وذيل النوادر لأبي علي القالي.
12- شعر طفيل الغنوي و شعر عمرو بن أحمد الباهلي.
13- شعر السليك بن السلكة وقصيدة عمرو بن كلثوم وقصيدة لقيط بن معمر الأبادي وشعر الأسود بن يعفر، وشعر حاتم الطائي وشعر زيد الخيل والأشعار الستة الجاهلية.
14- شعر الحطيئة.
15- شعر أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وشعر أبي الطيب المتنبي.(12)

هذه المؤلفات المعروضة سابقا هي التي أخذ الأعلم الشنتمري علومها عن شيوخه في قرطبة موطن رحلته لطلب العلم، وهي تنقسم إلى قسمين أساسين في تكوين الثقافة الأدبية القديمة، قسم اللغة وقسم الأدب شعره ونثره، وقال مُحَمَّد العبدلاوي بعد حديثه المسهب عن هذه المرويات: "يتبين لنا من عرض مرويات الأعلم السابقة أن جل هذه المرويات، كان عن طريق أبي سهل الحراني وابن الإفليلي، وبعضها كان عن طريق مسلم بن أحمد... ويمكن إجمال هذه المرويات في فنون مختلفة هي اللغة والغريب و شرحه والأدب والأخبار والشعر والأمثال."(13)ولذلك فإن مصادر ترجمته تصفه بالنحوي والعالم بالعربية المعتني بشرح الأشعار إعانة لشيخه ابن الإفليلي أو قائما على شرحها بنفسه كما هو الشأن في شرحه على الشعراء الستة وشرحه لحماسة أبي تمام الطائي وشعره أيضا، يقول ابن شكوال في هذا المضمار: "وكان عالما باللغات والعربية ومعاني الأشعار، حافظا لجميعها، كثير العناية بها، حسن الضبط لها، مشهورا بمعرفتها وإتقانها."(14) وفي فهرست ابن خير في كثير من مواضعه حديث عن مؤلفات الأعلم الشنتمري والتي يمكن تصنيفها إلى مصنفات في اللغة والنحو وأخرى في الشعر وشرحه:

ISSN 2170-0796

ا- **مصنفات في اللغة والنحو:**

1- كتاب عيون الزهد في شرح أبيات كتاب سيبويه.

2- كتاب المخترع في النحو.

3- كتاب المسلة الرشيدية.

4- جزء فيه الفرق المسهب والمسهب.

5- المسألة الزنبورية.

6- جزء فيه مختصر الأنواء.(15)

7- شرح الجمل في النحو لأبي القاسم الزجاجي.(16)

8- شرح أبيات الجمل في كتاب مفرد.

9- تحصيل عين الذهب في معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب.(17)

10- كتاب النكت على كتاب سيبويه.

11- جزء فيه معرفة حروف المعجم.

ب- مصنفات في الشعر وشرحه:

1- كتاب الأشعار الستة الجاهلية.

2- كتاب شرح أشعار الحماسة.

3- قصائد الصبا في شعر أبي الطيب المتنبي.

4- شرح شعر أبي تمام الطائي.(18)

5- وذكر له ابن خير أيضا فهرستا.

وغزارة علمه وسعة معرفته وقيامه الذؤوب على خدمة علوم العربية وآدابها رغبت في الأخذ عنه والرحلة إلى حلقات درسه، فذاع صيته واشتهر واتصل بآل عباد ملوك إشبيلية، فأصبح مختصا بهم، يؤلف بأمرهم ويؤدب تحت رعايتهم، يقول صاحب نكت الهميان "كان واسع الحفظ جيد الضبط، كثير العناية بهذا الشأن، فكانت الرحلة إليه في وقته... أخذ عنه أبو علي الغساني، وطائفة كبيرة".(19) وفي شذرات الذهب: "ورحل إليه الناس من كل وجه."(20)

وهذه الإشارة إلى ثقافته ومؤلفاته والرحلة إليه، تدفعنا إلى الحديث عن تلامذته الذين كان لهم الفضل في رواية مؤلفاته وحفظ آثاره. وأشهر هؤلاء كما يبدو مما تقدم أبو علي الحسين بن مُحَمَّد الغساني الجياني، وكان من جهابذة المحدثين، وكبار العلماء المسندين، وكان له معرفة بالغريب والشعر والأنساب، وكان يجلس في جامع قرطبة، ويسمح منه أعيانها، توفي سنة498هـ (21)، وحاول مُحَمَّد العبدلاوي في بحثه القيم لتحقيق شرح الحماسة للأعلم الشنتمري المسمى كتاب "تجلي غرر المعاني"أن يستقصي أخبار تلاميذته، فاتضح له عسر هذا الخطب و صعوبته، ولذلك اكتفى بالإشارة إلى أشهرهم وفي مقدمتهم:

1- أبو الحسن علي بن عبد الرحمن التنوخي المشهور بابن الأخضر الأشبيلي توفي سنة 514هـ.

2- أبو بكر مُحَمَّد بن إبراهيم بن غالب بن عبد الغافر بن سعيد العامري القرشي من أهل شلب توفي سنة 532هـ.

ISSN 2170-0796

3- أبو بكر مُحَمَّد بن عبد الغني بن قندلة من أهل إشبيلية توفي سنة 533هـ.
4- أبو الوليد إسماعيل بن عيسى بن عبد الرحمن بن الحجاج اللخمي الإشبيلي توفي سنة 534هـ، ثم قال: "وبالإضافة إلى هؤلاء الذين ذكرناهم هناك تلاميذ آخرون للأعلم مشهورون منهم النحوي والشاعر والمتخصص في الحديث ورجاله، والذي له معرفة بالأدب و اللغة و الخبر ومعاني الشعر، منهم: النحوي أبو الحسين سليمان بن مُحَمَّد بن عبد الله المالقي المشهور بابن الطراوة توفي 528هـ، والشاعر المشهور أبو بكر بن عمار وزير المعتمد، والشاعر أبو مُحَمَّد عبد الجليل بن وهبون الذي انقطع لدروس الأعلم، وكان ينافح عن أستاذه بشعره عندما حاول بعض معارضيه التعريض به عند المعتمد، ومنهم أبو علي الحسن بن مُحَمَّد الغساني 427-498هـ، و هو من أهل الحديث، و أبو جعفر أحمد بن مُحَمَّد بن عبد العزيز اللخمي من أهل إشبيلية توفي في 533هـ صحب أبا علي الغساني ولازمه وبرز في الحديث ورجاله، ومُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الله بن مُحَمَّد بن مسلمة من أهل قرطبة ويكنى أبا عامر، وقد روى عن الأعلم كثيرا، توفي سنة 511هـ. (22) وعلق على عرضه لهؤلاء التلاميذ الذين أخذوا عن الأعلم ورووا مؤلفاته حيث ظل جزء هام منها محفوظا إلى عصرنا الحاضر يدل دلالة قوية على أحقية افتخار الأندلس ومباهاتها به قائلا: "هذه النظرة الموجزة في تلاميذ الأعلم، تبين لنا مدى الأثر الذي تركه هذا الرجل في مجال الرواية و التدريس."(23)
ويلاحظ الناظر في مقدمات كتب الأعلم الشنتمري حرص المعتضد بالله -صاحب إشبيلية- على خدمة العلم وعنايته بتنشيط حركة التأليف والشرح في اللغة والأدب، يقول في مقدمة كتاب "تحصيل عين الذهب": "هذا كتاب أمر بتأليفه وتلخيصه وتهذيبه وتخليصه المعتضد بالله المنصور بفضل الله أبو عمروعباد بن مُحَمَّد بن عباد عناية منه بالأدب وميلا إليه، وتهمما بعلم لسان العرب وحرصا عليه، أمر باستخراج شواهد كتاب سيبويه أبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر رحمة الله عليه وتخليصها منه وجمعها في كتاب يخصها ويفصلها عنه مع تلخيص معانيها، وتقريب مراميها، وتسهيل مطالعها، ومراقيها، و جلاء ما غمض و خفي منها من وجوه الاستشهادات فيها، ليقرب على الطالب تناول جملتها، ويسهل عليه حصر عامتها، ويجتني من كتب ثمر فائدتها، فانتهيت إلى أمره العلي،وسلكت فيه منهاج مذهبه الرفيع السني، وأمليته على ما حد أيده الله وأعلى يده..." (24)
ونفس التنويه والإشادة بالمعتضد بالله ومناقبه في البناء الحضاري الشامل لدولته خاصة وأن إشبيلية كانت مؤهلة لتكون قرطبة الأندلس آنئذ، نقرؤه في صدر مقدماته على الأشعار الستة و شرح الحماسة و شرح شعر أبي تمام، يقول في مقدمة شرحه: "إن لله تبارك وتعالى أنعم على أهل عصرنا وأبناء دهرنا بالملك الكريم ذي المآثر الشريفة والمساعي الرفيعة المنيفة المعتضد بالله أبي عمروعباد بن مُحَمَّد بن عباد". ثم أضاف إلى ذلك "ولما كان العلم من أقوى أسباب الحصول وأوكد وسائل القربة لعلمه بسرائره المطوية، وظهوره على وجوهه الخفية، أهديت إليه قطرة من فضلها أنها من غمره ودرة رونقها وحسنها أنها من بحره، و قصدي بفائدتها واعتمادي في تمني ثمرتها كوكب الغرب الذي أنار سناه الشرق، وبدر التم الذي عم نوره الخلق الحاجب الظافر أبو القاسم المعتضد بالله... والذي خصصته به أعزه الله تعالى شعر أبي تمام بن أوس الطائي".(25)
وكما أولى المعتضد بالله عنايته بالأعلم الشنتمري، وعهد إليه بالتأليف على الخطة التي يرتضيها في طلب العلم، خص المعتمد هذا الشيخ بنفس العناية فكان محل استشارتهم في المسائل اللغوية العويصة، ففي نفح الطيب: "وقال الحجازي صاحب "المسهب في أخبار المغرب":

ISSN 2170-0796

كم بت من أسر السهاد بليلة ناديت فيها هل لجنحك أخر
إذا قام هذا الصبح يظهر ملة حكمت بأن ذبح الظلام الكافر

وعلى ذكر "المسهب" فقد كنت كثيرا ما استشكل هذه التسمية، كما قال غير واحد إن المسهب إنما هو بفتح الهاء، كقولهم سيل مفعم العين، والفقرة الثانية وهي: "المغرب" تقتضي أن يكون بكسر الهاء، ولم يزل ذلك يتردد في خاطري إلى أن وقفت على سؤال في ذلك رفعه المعتمد بن عباد سلطان الأندلس إلى الفقيه الأستاذ أبي الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى النحوي الشنتمري المشهور بالأعلم."(26) و في الذخيرة لابن بسام أن الأعلم الشنتمري كان أستاذ ولد المعتمد، وذلك من حسنات إجلال هذا الملك الأديب لهذا الأديب العالم الذي تمكن قدره وعلا صيته بإشبيلية، يقول ابن بسام في ذكر الأديب مُحَمَّد عبد الجليل ابن وهبون المرسي: "شمس الزمان وبدره وسر الإحسان وجهره ومستودع البيان ومستقره... وإنما ذكرته في هذا القسم الغربي من أهل إشبيلية لأنها بيت شرفه المشهورة، و مسقط عبثه المشكور، طرأ عليها منتحلا للطلب، و قد شدا طرفا من الأدب، وكان الأستاذ أبو الحجاج الأعلم يومئذ زعيم البلد وأستاذ ولد المعتمد، فعول عليه من رحلته، وانقطع إليه بتفصيله و جملته، و كانت له في أثناء ذلك همة تترامى به إلى العلى، ترامي السيل من أعلى الربى، و كان بين الأستاذين أبي الحجاج وأبي مروان بن سراج ما يكون بين فحلين في هجمة وزعيمين من أمة."(27)

والمعتمد المذكور في هذا النص الفني بالدلالات سواء فيما يتعلق بمنزلة الأعلم في قصر إشبيلية، أو فيما يتعلق بالعناية العظيمة التي كان يوليها المعتمد لأهل الأدب على الرغم من الظرف التاريخي العصيب، هو المعتمد على الله أبو القاسم مُحَمَّد آخر ملوك بن عباد في إشبيلية ولي بعد وفاة والده في سنة461هـ، كان صاحب قرطبة وإشبيلية وما والاهما من جزيرة الأندلس، وكان الأدفونش ملك الإفرنج قد قوي أمره في ذلك الوقت، وكان ملوك الطوائف من المسلمين هناك يصالحونه ويؤدون إليه ضريبة، ولما أخذ طليطلة سنة 478 هـ لم يعد يقبل ضريبة المعتمد، وكان أكبر ملوك الطوائف وأكثرهم بلادا طمعا في أخذ بلاده، فكانت الحرب بينهما، واستنجد المعتمد بيوسف بن تاشفين ملك المغرب الذي تغير بعد ذلك على المعتمد و قبضه وسجنه في أغمات وأهله إلى أن توفي سنة 488 هـ.

وكان المعتمد مكرما للأدب وأهله. حتى قيل إنه لم يجتمع بباب أحد من ملوك عصره من أعيان الشعراء وأفاضل الأدباء ما كان يجتمع ببابه. وكان شاعرا له ديوان شعري مطبوع، قال ابن بسام: وللمعتمد بن عباد شعر كما انشق الكمام عن الزهر، لو صدر مثله عمن جعل الشعر صناعة واتخذه بضاعة لكان رائقا معجبا ونادرا مستغربا(28)

و نظرا للظروف السياسية التي مرت بها تلك المنطقة التي عايشها الشنتمري ورضع من حلوها ومرها، وكانت طرفا هاما في حياته وتكوينها، كان لزاما علينا أن نعرضها حتى نطلع عليها ونعرف بحق هذا الرجل، ولا نغمط له مكانته وصموده وتحديه لها...

الأعلم الشنتمري في ظل دولة بني عباد ملوك إشبيلية:(الحالة السياسية)

بعد سقوط الخلافة الأموية في الأندلس تكونت ممالك صغيرة يعرف عهدها بعهد ملوك الطوائف(29) الذين استبد كل رئيس منهم بتدبير ما تغلب عليه من الجهات، فكانت تنشأ بينهم الحروب الدامية التي لا تنتهي. يقول يوسف أشباخ: "وهكذا تكونت بعد معركة دامية بين الأحزاب، من هاته الدويلات الإسلامية العديدة أربع دول

ISSN 2170-0796

رئيسية غلبت على جميع الدويلات الأخرى أو تحالفت معها. ففي جنوب إسبانيا في غرناطة وفي جزء من الأندلس غلب الحزب الإفريقي(المغربي) الأدارسة أو بنو حمود أصحاب مالقة، وحالفهم أمير غرناطة وقرمونة، وكانوا فضلا عن ذلك يحكمون عدة مدن في شمال المغرب مثل مليلية وطنجة وسبتة. وكان بنو عباد أمراء إشبيلية يخوضون الحرب مع الحزب الإفريقي بلا انقطاع حتى تم لهم الظفر، وكانوا قد غلبوا بالحرب والخديعة على جميع الأمراء و الولاة في جنوب غربي إسبانيا، واضطر أمير قرطبة وبطليوس إلى الانضواء تحت لوائهم حلفاء أو مغلوبين، ولم يقف في سبيل محاولة بني عباد الاستيلاء على إسبانيا المسلمة كلها، سوى بني ذي النون أمراء طليطلة الأقوياء الذين حكموا أواسط إسبانيا، بيد أنهم لم يحققوا ذلك إلا على حساب استقلالهم، ذلك أنهم كانوا يدفعون الجزية لملك تشتالة التماسا لعونه ضد خصومهم، وأما الفريق الرابع الذي حكم في شرق إسبانيا فكان أضعف من الباقين وحدة، وأقلهم استقلالا، ذلك أنه كان طبقا للظروف يعقد التحالف مع الأدارسة أو مع بني عباد أو مع بني ذي النون، وكان بنو عامر في بلنسية ومرسية نظرا لموقعهما الجغرافي أكثر اضطرارا لهذا التقلب مع بني هود و التجيبين، سادة سرقسطة وتطيلة ووشقة."(30)

والنص يعطينا صورة واضحة عن التوزيع التاريخي لأهم دول الطوائف في الأندلس أو إسبانيا المسلمة كما عبر عنها الباحث، وقد دأب المؤرخون القدامى ورواد البحث العلمي في وقتنا الحاضر أن يولوا عناية بارزة لدولة بني عباد في إشبيلية وغرب الأندلس الذين منهم المعتمد بن عباد الشهير الذكر بالمغرب و المشرق، أما الأستاذ عبد الله كنون فقال في تصديره لكتاب الأستاذ عبد السلام أحمد الطود: "بنو عباد بإشبيلية": "وكانت مملكة بني عباد أقوى هذه الممالك، وكان بنو عباد أبعد ملوك الطوائف أثرا في النهضة العلمية و الأدبية، وحفظ التراث الفكري و الحضارة العربية في الأندلس، فالتاريخ لهم تاريخ للحياة السياسية والاجتماعية والأدبية في الأندلس خلال المدة التي سيطر فيها ملوك الطوائف على الفردوس المفقود."(31)

وهذه النصوص تسمح لنا بالبحث في نشأة هذه الدولة ومراحلها التاريخية العامة، وعن الحالة العلمية والأدبية فيها، ومساهمة الأعلم الشنتمري في ذلك بما ألف من كتب لملوكها...فإسماعيل بن عباد الذي قدمه ابن أبي عامر على خطة القضاء بإشبيلية لم تزله بل أقام على خطة القضاء حتى خلفه ابنه أبو القاسم الذي أحسن السياسة مع الرعية والملاطفة بهم فرمقته القلوب،(32) وهذا القاضي هو مؤسس دولة بني عباد الفعلي، وقد أورد ابن خلكان في كتابه:"كان يحي بن علي بن حمود الحسني المنعوت بالمعتلي صاحب قرطبة، وكان مذموم السيرة فتوجه إلى إشبيلية محاضرا لها، فلما نزل عليها اجتمع رؤساء إشبيلية و أعيانها و أتوا القاضي مُحَمَّد المذكور، وقالوا له: أما ترى ما حل بنا من هذا الظالم، وما أفسد من أموال الناس؟ فقم بنا نخرج إليه، ونملكك ونجعل الأمر إليك، ففعل، ووثبوا على يحي فركبوا إليه وهو سكران فقتل".(33) وبعد ذلك "تم له الأمر، ثم ملك بعد ذلك قرطبة وغيرها من البلاد" (34) بينما كانت البقية الباقية من بني أمية في قرطبة تمزق بعضها بعضا ويخرج الحكم من يدها"(35). ثم قال صاحب المعجب: "ثم ولي ما كان يليه بعده من أمور إشبيلية وأعمالها ابنه أبو عمرو عباد مُحَمَّد بن إسماعيل بن عباد فجرى على سنن أبيه في إيثار الإصلاح وحسن التدبير وبسط العدل، مدة يسيرة ثم بدا له أن يستبد بالأمور وحده" (36)، وقد امتازت سيرة هذا الرجل بالشدة والقسوة فقد تسمى أولا بفجر الدولة ثم بالمعتضد ثم تجرد لإدارة مملكته، قال صاحب المعجب: "وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أوحد عصره شهامة وصرامة وشجاعة قلب وحدة نفس، كانوا يشبهونه بأبي جعفر المنصور من ملوك بني العباس، كان قد استوى في مخافته ومهابته القريب والبعيد لاسيما منذ قتل ابنه وأكبر ولده المرشح لولاية عهده صبرا."(37)

ISSN 2170-0796

ما إن سبر أحد من دهاة رجاله غوره، ولا أدرك قعره ولا أمن من مكره، لم يزل ذلك دأبه منذ ابتدائه إلى انتهائه. (38) والنص يلخص سيرة المعتضد مع أعدائه فقد "اتخذ خشبا في ساحة قصره جللها برؤوس الملوك والرؤساء عوضا عن الأشجار وعلى آذانها رقاع بأسماء أصحابها، إرهابا لأعدائه".(39) وكان الدافع لذلك رغبة في المحافظة على حكمه وطمعا في الاستيلاء على ما جاوره من البلدان فقد "اكتشف أن ابنه إسماعيل وهو خليفته وولي عهده يأتمر به، فحبسه في قصره، فرفع إليه أنه ماض في تدبير المؤامرة عليه، من مكان اعتقاله، فأحضره وقتله بيده سنة 449هـ، وقتل الوزير الذي تواطأ معه على ذلك و آخرين".(40)"ولما قتل ابنه إسماعيل– كما تقدم– وكان قد لقيه المؤيد، عهد بعده إلى ابنه أبي القاسم مُحَمَّد بن عباد بن مُحَمَّد بن إسماعيل بن عباد ولقبه بالمعتمد على الله، فحسنت سيرة أبي القاسم هذا في حياة أبيه وبعد وفاته."(41)توفي المعتضد بالله في شهر رجب 464هـ واختلف في سبب وفاته فقيل إن ملك الروم سمه في ثياب أرسل بها إليه، وقيل إنه مات حتف أنفه والله أعلم.(42) ولما مات المعتضد ولي بعده ابنه المعتمد على الله الذي تابع سياسة أبيه في التوسع على حساب الممالك الأخرى إلى أن اتفقت له المحنة الكبرى بخلعه و إخراجه عن ملكه في شهر رجب 474هـ. (43) قال صاحب المعجب: "ثم قام بالأمر من بعده ابنه أبو القاسم مُحَمَّد بن عباد بن مُحَمَّد إسماعيل بن عباد وزاد إلى المعتمد على الله الطاهر بحول الله، وكان المعتمد هذا يشبه بهارون الواثق بالله من ملوك بني العباس، ذكاء نفس وغزارة أدب، وكان شعره كأنه الحلل المنشرة".(44)وامتاز المعتمد على الله بصفات أخرى ميزت سيرته يقول عنه ابن الأبار: "وكان المعتمد من الملوك الفضلاء والشجعان العقلاء والأجواد الأسخياء المأمونين عفيف السيف والذيل، مخالفا لأبيه في القهر، والسفك، والأخذ بأدنى سعاية، رد جماعة ممن نفى أبوه وسكن وما نفر، وأحسن السيرة وملك فأسجع، إلا أنه كان مولعا بالخمر منغمسا في اللذات، عاكفا على البطالة، مخلدا إلى الراحة، فكان ذلك سبب عطبه وأصل هلاكه." (45) هذه النصوص مجتمعة توضح سيرة المعتمد بن عباد وتبين وجها من سياسته في تدبير ملك إشبيلية كما توقفنا على ميوله الأدبي، إذ كان شاعرا نظم الشعر وتصوره لنا، رجل لذة عاكفا عليها مولعا بالخمر والجواري، ميالا إليها مما كان سبب زوال ملكه. يقول صاحب المعجب:"ولى أمر إشبيلية بعد أبيه، وله سبع وثلاثون سنة، واتفقت له المحنة الكبرى بخلعه و إخراجه عن ملكه في شهر رجب الكائن في سنة 474هـ. فكانت مدة ولايته إلى أن خلع وأسر عشرين سنة كانت له في أضعافها مآثر أعيا على غيره جمعها في مائه سنة أو أكثر منها. كانت له رحمه الله همة في تخليد الثناء وإبقاء الحمد". (46)

وهذه المآثر تتجلى في تحقيق ما كان يراود المعتضد من قبل من رغبة في القضاء على الممالك المجاورة و الاستيلاء عليها وكسب طاعتها، من أجل ذلك لم تهدأ الأندلس من الحروب و الفتن في أثناء عهد دول الطوائف، وهو ما جعل المعتمد يختزل مآثر شهيرة في مدة قصيرة من ولايته "ولم يزل المعتمد هذا في جميع مدة ولايته، والأيام تساعده، والدهر على ما يريده يؤازره ويعاضده إلى أن انتظم له في ملكه من بلاد الأندلس ما لم ينتظم لملك قبله. أعني من المتغلبين، ودخلت في طاعته مدن من مدائنها أعيت الملوك وأعجزتهم، وامتدت مملكته إلى أن بلغت مدينة مرسية وهي التي تعرف بتدمير، بينها وبين إشبيلية نحو من اثنتي عشرة مرحلة وفي خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة وكان تغلبه على قرطبة و إخراجه ابن عكاشة منها يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة471هـ ثم رجع إلى إشبيلية، واستخلف عليها ولده عبادا...."(47)

وقد استمرت دولة بني عباد في نهج هذه السياسة التوسيعية إلى بزوغ المواجهة العسكرية الحاسمة مع الفونسو السادس.(48)

ISSN 2170-0796

يقول المقري في نفح الطيب ملخصا عهد ملوك الطوائف: "... ومنهم بنو جهور كانوا بقرطبة في صورة الوزراء، حتى استولى عليهم المعتمد بن عباد، وأخذ قرطبة، وجعل عليها ولده، ثم كانت له وعليه حروب وخطوب، وفرق أبناءه على قواعد الملك، وأنزلهم بها، واستفحل أمره بغرب الأندلس، وعلت يده على من كان هنالك من ملوك الطوائف مثل ابن حبوس بغرناطة، وابن الأفطس ببطليوس، ... وكلهم يدارون الطاغية، ويتقونه بالجزي إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين و استفحل ملكه، فتعلقت آمال الأندلس بإعانته وضايقهم الطاغية في طلب الجزية، فقتل المعتمد اليهودي الذي جاء في طلب الجزية للطاغية بسبب كلمة آسفه بها، ثم أجاز البحر صريحا إلى يوسف بن تاشفين فأجاز معه البحر والتقوا مع الطاغية في الزلاقة، فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى، و نصر الله تعالى الإسلام نظرا لا كفاء له... وصبر فيها المعتمد صبر الكرام، وكان قد أعطى يوسف بن تاشفين الجزيرة الخضراء ليتمكن من الجواز متى شاء، ثم طلب الفقهاء بالأندلس من يوسف بن تاشفين رفع المكوس والظلامات عنهم، فتقدم بذلك إلى ملوك الطوائف، فأجابوه بالامتثال حتى إذا رجع من بلادهم رجعوا إلى حالهم وهو خلال ذلك يردد عساكره للجهاد، ثم أجاز إليهم وخلع جميعهم، ونازلت عساكره جميع بلادهم، واستولى على قرطبة وإشبيلية و بطليوس وغرناطة وغيرها، وصار المعتمد بن عباد كبير ملوك الأندلس في قبضته أسيرا بعد حروب، ونقله إلى أغمات قرب مراكش سنة أربع وثمانين و أربعمائة، واعتقله هناك إلى أن مات سنة ثمان وثمانين."

هذا النص إذن يلخص أحوال الأندلس في القرن الخامس الهجري في عهد ملوك الطوائف قبل أن تصبح الأندلس مركز صراع بين قوتين، قوة النصارى المسيحيين وقوة المرابطين الذين أنهوا عهد ملوك الطوائف، ونقلوا تقرير مصير الأندلس إلى المغرب"(49)

لقد تناولنا فيما سلف الحالة السياسية العامة في إشبيلية، والأدوار التي مر فيها حكم دولة بني عباد، وبالمقابل سنخصص المبحث التالي للحديث عن الأحوال العلمية: الفكرية والأدبية في إشبيلية على عهدهم، فقد خلدت لهم الكتب مآثر في هذا المضمار لرعايتهم لأهل الأدب وتنافسهم في جمعهم من كل صوب، ومن بينهم الأعلم الشنتمري.

الحركة الفكرية والأدبية في إشبيلية:

إن بني عباد كانوا بيت علم، وإنهم تولوا القضاء في إشبيلية على عهد بني أمية وقد سجلت لهم كتب التاريخ ما أنصفوا به من العلم والحكمة والدهاء في الحكم بين الناس، وكيف رعوا الأدب والأدباء ونظموا الشعر وطربوا له في أيام طمعهم في الرئاسة وخوضهم غمار السياسة حينما انتخبهم أعيان إشبيلية لتولي هذا الأمر، يقول ابن بسام في الذخيرة عن استقطاب مدينة إشبيلية لأهل العلم: "فاشتمل هذا القطر الغربي لأول تلك المدة على بيتي حسب وجمهور أدب مملكتات من لخم وتجيب مصرتا بلاده و أكثرتا رواده، فأتاه العلم من كل فج عميق و تبادره العلماء من بين سابق و مسبوق، وكلما نشأ من هذين البيتين أمير كان إلى العلم أطلب، وفي أهله أرغب، والسلطان سوق يجلب إليه ما نيفق لديه، حتى اجتمع في الجانب الغربي على ضيق أكنافه، وتحيف العدو فقصمه الله لأطرافه، ما باهى الأقاليم العراقية و أنسى بلغاء الدولة الديلمية، فقلما رأيت فيه ناثرا غير ماهر، و لا شاعرا غير قاهر... وطريقتهم في الشعر الطريقة المثلى التي هي طريقة البحتري في السلاسة والمانة والعذوبة والرصانة".(50)

ISSN 2170-0796

نلاحظ من خلال النص كيف خلد ملوك إشبيلية ذكرهم خاصة إذا علمنا أن التنافس كان قويا بين ملوك الطوائف في المجالات العسكرية والعمرانية والعلمية، لأن السياسة الداخلية والخارجية في الدول الطائفية كانت قائمة على الهجومات المتبادلة، يقول أحد الباحثين: "ولم يكن التنافس بين هؤلاء الملوك سياسيا فقط، بل كان أيضا عمرانيا وأدبيا وفنيا، فتنافسوا في ابتناء الحصون و القلاع، وتنافسوا في مجالس الأدب والطرب، وفي تشجيع الشعراء والكتاب والمغنيين".(51)

والمتتبع لسير هؤلاء الملوك يلمس هذا الاهتمام واضحا، ففي البيان المغرب قال الحميدي: "كان أبو عمرو عباد صاحب إشبيلية من أهل الأدب البارع و الشعر الرائع، وقد رأيت له سفرا صغيرا وفي نحو ستين ورقة من شعر نفسه فمن قوله(المنسرح):

كأنما ياسميننا الغض كواكب في السماء تبيض
والطرق الحمر في جوانبه كخد عذراء مسه عض(52)

و لقساوة المعتضد بالله الإشبيلي في الأخذ بزمام الأمور تحاشاه بعض أهل الأدب، روى أنه: "لما وفد أبو عبد الله في شرق القيروان على الأندلس تطلعت إليه همم ملوكها لبعد صيته، فكان ممن استدعاه المعتضد بن عباد، و كان ابن شرف قد امتلأت مسامعه من أخباره الشنيعة فجاوبه بقوله:

أأنت صيدت غيري صيد طائرة أوسعتها الحب حتى ضمن القفص
حسبتني فرصة أخرى ظفرت بها هيهات ما كل حين تمكن الفرص
لك الموائد للقصاد مترعة تروي و شبع لكن بعدها الفصص(53)

و هو نفس شعري نجده حتى في مرثياته، فابن الآبار يقول: "وفي موت المعتضد يقول أبو الوليد بن زيدون- ولم يظهره- سرورا بذلك واستراحة منه لأنه كان غير مأمون على الدماء و لا حافظا لحرمة الأولياء:

لقد سرني أن النعي موكل بطاغية قد حم منه حمام
تجانب صوب الغيث عند ذلك الصدا ومر عليه المزن وهو جهام(54)

غير أن هذا لم يخب أجيج الحركة الفكرية و نشاطها على هذا العهد المتعدد الأوجه الدائب الحركة، يقول الباحث: "ومن الإنصاف لهؤلاء الملوك أن ننكر أنهم أدباء وشعراء كالمظفر و ابنه المتوكل ملكي بطليوس، والمعتمد بن عباد ملك إشبيلية، وكان أكثرهم يدعو إلى بلاطه العلماء والشعراء والفلاسفة يحاضرهم، ويجالسهم وفي عهدهم ظهرت الفلسفة وعلى رأسها ابن باجة".(55) والمعتضد من هؤلاء الملوك على قساوته و شدته كان لأهل الأدب الذين وفدوا عليه، و قربوا إليه العناية الكبيرة، وله في ذلك الوقائع المشهورة:

"وكان لأهل الأدب عنده سوق نافقة وله في ذلك همة عالية، ألف له الأعلم أديب عصره ولغوي زمانه شرح الأشعار الستة وشرح الحماسة وألف له غيره دواوين و تصانيف لم تخرج إلى الناس".(56)و شابه المعتمد أباه في تسيير شؤون دولته، و لقي الأدب والأدباء في عهده ما كانوا يلقونه في عهد أبيه، فتسابقوا إليه وتهافتوا عليه.(57)

وفي ذلك يقول عبد الواحد المراكشي: "واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس، وكان مقتصرا من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به، وينظم إليه، (58) وكان المعتمد ملكا شاعرا جمع صفات الشجاعة والجود إلى صفات الأدب، والعلم بأسراره.

نستطيع بعد هذا أن نتصور الأحوال العامة في إشبيلية خلال فترة القرن الخامس الهجري. وقد لقي فيه أهل العلم العناية الكبرى للدور الذي كانوا يقومون به في المجتمع، يقول ابن عبود: "والجدير بالذكر أن وزن العلماء و الفقهاء في

ISSN 2170-0796

إشبيلية كان بالغ الأهمية شأنها في ذلك شأن الأقطار الأندلسية الأخرى، و ذلك لأن اتصالهم بالناس كان مباشرا أكثر من الحكام، علاوة على هذا كان الفقهاء في غالب الأحيان من أصول متواضعة لذا كانت جذورهم الشعبية عميقة، فكثيرا ما عبروا عن مطالب و طموحات الجماهير و رفعوا شعاراتهم، بالرغم من أن ثقة الجماهير في الفقهاء كانت تتأرجح بحسب المناطق، و في مختلف أزمنة التاريخ الأندلسي، و مع ذلك فوجودهم كان يفسر دائما كقوة معارضة أو مؤيدة للحاكمين..."(59)

يبين النص الدور الذي لعبه العلماء والفقهاء في إشبيلية لحاجة الحكام لهم لقربهم من الناس و مخالطتهم لهم و اتصالهم المباشر بهم هذا إذا علمنا أن تطبيق المذهب المالكي في عموم الأندلس قد ضمن للفقهاء والقضاة الانتقال إلى إشبيلية لتولي مناصب الإفتاء. يقول ابن عبود: "و من المحتمل أن يكون قد استقر بإشبيلية على عهد بني عباد فقهاء آخرون وفدوا عليه من مناطق أندلسية أخرى للعمل بها، فقد كفلت إشبيلية فرصا للعمل لم تكن متوفرة في غيرها من المدن، فجلبت الشخصيات المرموقة والمشهورة في الميادين الثقافية والقضائية والسياسية.

ومن الأدباء الذين رحلوا إلى إشبيلية الأستاذ أبو الحجاج الأعلم الشنتمري الذي رأينا من قبل أنه ألف للمعتضد شرح الأشعار الستة وشرح الحماسة، وكان أستاذ ولده المعتمد، وله ألف شرح ديوان أبي تمام حبيب بن أوس الطائي

الهوامش:

1- الحميري– الروض المعطار في خبر الأقطار ص: 347.
2- ابن خلكان– وفيات الأعيان ج7 ص: 82.
3- ابن شكوال– الصلة ج2 ص: 620.
4- محمد العبدلاوي– مقدمة تحقيق تجلي غرر المعاني ج1 ص: 23.
5 - محمد العبدلاوي– مقدمة تحقيق تجلي غرر المعاني ج1 ص: 23.
6 و 7- نفسه ص: 24.
8- ابن شكوال- الصلة ج2 ص: 681.
9- ابن خلكان- وفيات الأعيان ج1 ص: 51.
10- ابن شكوال- الصلة ج2 ص: 686.
11 - نفسه ص: 626.
12– محمد العبدلاوي- مقدمة تحقيق جلي الدين- غرر المعاني ج1 ص: 35-45.
13- نفسه ص: 47.
14- ابن شكوال- الصلة ج2 ص:643،644.
15-ابن خير- الفهرست ص: 315.
16– ابن ايبك الصفدي- نكت الهميان ص: 314.
17- دائرة المعارف الإسلامية ج 2 ص: 312.
18- محمد بن شريفة– أبو تمام وأبو الطيب في الأدب المغاربة ص: 39.
19- ابن ايبك الصفدي– نكت الهميان ص: 313.
20- ابن العماد الحنبلي– شذرات الذهب ص: 403.
21- ابن خلكان– وفيات الأعيان ج 2 ص:180.
22- محمد العبدلاوي- مقدمة تحقيق تجلي غرر المعاني ج1 ص: 48،49.
23- نفسه ص: 49.
24- الأعلم الشنتمري- تحصيل عين الذهب ص: 3-5.
25- الأعلم الشنتمري- شرح ديوان أبي تمام ج 2 ص: 109.
26- المقري– نفح الطيب ج 4 ص: 76، 77.
27- ابن بسام- الذخيرة ق2 م 1 ص: 474، 475.
28- ينظر: ترجمته على سبيل المثال في ابن خلكان- وفيات الأعيان ج5 ص: 21- 39.
29- دائرة المعارف الإسلامية ج2 ص: 695.
30- يوسف أشباخ- تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ص: 27.
31- عبد السلام أحمد الطود– بنو عباد بإشبيلية ص: 29.
32- ابن خلكان– وفيات الأعيان ج5 ص: 24.
33- نفسه.
34- عبد السلام أحمد الطود– بنو عباد بإشبيلية ص: 54.
35- ابن خلكان– وفيات الأعيان ج5 ص: 24.
36- عبد الواحد المراكشي- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص: 151 وما بعدها.
37- نفسه ص: 143.
38- ابن الأبار– الحلة السيراء ج2 ص: 41.
39- خير الدين الزركلي– الأعلام ج3 ص: 258.
40- نفسه.
41- عبد الواحد المراكشي- المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص: 156
42- نفسه ص: 157.
43- نفسه ص: 158.
44- نفسه ص: 189، 190.
45- الحلة السيراء ج2 ص: 155 وما بعدها.

46- عبد الواحد المراكشي- المعجب ص: 158.
47- نفسه ص: 189، 190.
48- أحمد بن محمد المقري التلمساني– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ص: 438 ، 439.
49- ابن عبود- إشبيلية في عهد بني عباد ص: 113.
50- ابن بسام الشنتريني– الدخيرة في محاسن أهل الجزيرة ق2 ج1 ص: 13.
51- الأعلم الشنتمري- شرح ديوان أبي تمام ص: 38.
52- ابن عذاري المراكشي- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ج3 ص: 285.
53- محمد بن شاكر الكتبي- فوات الوفيات ج2 ص: 147، 148.
54- الحلة السيراء ج2 ص: 43.
55- جودت الركابي- في الأدب الأندلسي ص: 25.
56- البيان المغرب ج3 ص: 284.
57- الذخيرة ق2 ج1 ص: 55.
58- المعجب ص: 189، 190.
59- ابن عبود- إشبيلية في عهد بني عباد ص: 204.

ISSN 2170-0796